قبل رأسمالية » ، فانه لم يسم لنا ذلك « النمط الوسيط » الذي وصفه بـ « الاكثر تطورا » واستطاع تجاوز « العزلة المشاعية ـ الطبيعية » لكنه عجز عن الارتقاء الى « وحدة كيانية » لمجتمع الاردن وبقي منجزا « الوحدة المناطقية»، الاساس المادي لمقولة « عدة مجتمعات » ؟ وفي الواقع ، فان حوراني هو الذي عرض واستنتج لنا طبيعة التركيب الاقتصادي الاجتماعي ونتائجه ومظاهره ابان تلك الفترة ، بشكل اوضح واكثر تفصيلا ، بحيث ينسق ذلك الاساس المادي « للعزلة » و « الوحدات المناطقية » ٠

لتأكيد ذلك ، نقتبس بعض الاستنتاجات المتعلقة بهذا الموضوع ٠ في حديثه عن اوضاع الزراعة والفلاحين انذاك كتب يقول « ان شيئا من الاستقرار والهيبة قد توفرت ، ومهدت السبيل للاستقرار الزراعي » ص ٢٢ ، وان « جميع الجماعات السكانية ذات الانماط الطبيعية كانت على صلة وطيدة بالتجارة ، وان تجارة القبائل كانت قوية منذ فترة بعيدة (٠٠٠) والتي كانت قادرة لا فقط على تجديد انتاجها بفضل مراعيها الواسعة وهيمنتها ٠٠٠ وانما بفضل اقتطاعها الفائض من الفلاحين من جهة ، ومن القوافل التجارية وقوافل الحج من جهة اخرى » ص ٢٣ ٠ اما عن الفلاحين فقد كانوا « القوة المنتجة الرئيسية في البلاد » ص ٢١ ٠ وعندما يقيم طبيعة تلك الفترة عموما يقول « ان فترة نهاية القرن ١٩ كانت فترة ازدهار الاقتصاد البضاعي والعلاقات البضاعية الداخلية ، اذ كانت الظروف الاجتماعية والطبقية مهيأة لمثل هذا التطور ، وكانت الزراعات ذاتها ذات طابع سوقي ـ بضاعي » ص ٢٤ ٠ وعن المشاعية يستطرد في تقييمه قائلا « ان النصف الثاني من القرن الماضي قد شهد تفسخ العلاقات المشاعية التي تحكم الزراعة وملكية الاراضي (٠٠٠) وان التمايز الطبقي قد بلغ في اواخر القرن ١٩ مداه في الكرك » ص ٢٥ ٠ وفي « السنوات الاخيرة من القرن الماضي وفي مطلع القرن الحالي ، اخذت القرى تظهر كمراكز ثابتة للفلاحين وسط اراضيهم الزراعية » ص ٢٥ ٠ وكذلك فان « انشاء الخط الحديدي (١٩٠٠ ـ ١٩٠٨) كان احد الدوافع الهامة لجملة التطورات الايجابية بالنسبة لشرق الاردن ، اذ الحق ضربة قاصمة بالهيمنة البدوية » ص ٢٨ ، كما وساعد انشاء الخط « على انتعاش العلاقات البضاعية والنقدية وعلى ربط البلاد بالسوق الخارجي ووسع نطاق التجارة ، وكون ظروفا مناسبة لتتطور الاسواق المحلية » ص ٢٨ ٠ وهكذا فان « كل الشواهد المختلفة خلال القرن الماضي اظهرت ان التحول نحو الاقطاعية هي عملية جارية في كل بقعة زراعية في البلاد » ص ٣٠ ٠

وعندما نقوم بجمع وترتيب الافكار والاستنتاجات الواردة ، وغير المختلف على صحتها ، يمكننا ان نلخص التركيب الاقتصادي الاجتماعي لشرق الاردن ابان الفترة الاخيرة من السيطرة العثمانية وقبيل الحرب العالمية الاولى بالقول ، ان هذه البقعة التي تحولت لاحقا الى كيان تتعايش فوقها انماط اقتصادية متعددة ، حيث اخذت الانماط الاشد تخلفا في التفتت والتفسخ ، وافسحت المجال لنمو وتطور ومن ثم اتساع انماط متقدمة زراعية وبضاعية ، بل واظهرت بشكل بارز عناصر لانماط رأسمالية ، مثلته التجارة واتساع التبادل ٠ حيث جرت عملية « زحف النقود المظفر » ـ كما يسميه انجلز بشكل واسع وبارز ـ وبذلك ، دخل قطاع كبير من «الجماعات» و « التجمعات » السكانية في علاقات